عبث الدقات

عمرو مجدي

"تحفة .. تحفة فنية بكل المقاييس!"

قالها السَّاعاتي الكهل اليوناني الأصل (مكاري آرمانيوس) صاحب دُكَّان الساعات الواقع بناحية باب اللُوق في انبهارٍ، مُتفحِصٍ ساعة الحائط البديعة الموضوعة أمامه، كان إطارها مطلي بماء الذهب الخالص، وهيكَّلها من الآبانوسِ الفاخر، أمَّا زجاجها فكان بلوري شفاف جميل لم يزل محتفظًا بصفائه، فتهللت أسارير (نيازي) وابتسم وقال في فخرٍ:

- بالفعل إنهَّا قطعة فنية بحق لا تُقدر بأيِّ ثمن.

ثم أنَّه استطرد في زهوٍ:

- لقد ابتاعها والد جدي من جنيف بسويسرا عام ١٩٠٩ وقتما كان يدرس العلوم هناك لتُورث بعد ذلك لجدي نفسه، ثم لأبي والذي بدوره أعطاها لي وقت زواجي، في الحقيقة يمكنك اعتبارها في حكم التراث بالنسبة لعائلتنا!

هز مكاري رأسه مُتفهمًا وكان لا يزال يحدق في الساعة في مزيج من الاعجاب والانبهار قبل أن يقول:

- وما هي مشكلتها؟

obeikandl.com

قال نيازي في لهجةٍ حملت أسف واضح :

- فجأة ودون سابق إنذار توقَّفت عن دقاتها.

ابتسم مكاري وقال في تلقائية:

- بسيطة!

هتف نيازي في لهفة:

- حقًا؟

هتف مكاري:

- بالتأكيد.

ثم استطرد وهو يجلس على مقعده المتهالك ويشير لنيازي بالجلوس بدوره على مقعدٍ قُبالته:

- لن تأخذ في يدي أكثر من نصف ساعة لإصلاحها.

قال نيازي في امتنانٍ :

- لهذا يطلقون عليك لقب الخبير الأوَّل.

ابتسم الكهل لهذا المديح، ثم بدأ في إصلاح الساعة بأدواته الدقيقة المتنوعة الموضوعة بشكل مُنظم على سطح مكتبه في سرعة تنم عن مهارة وحرفية تعود لأكثر من ستون عامًا، ثم أنَّهُ قال لنيازي في لهجة اكتست بالجدية:

- هل الساعة للبيع؟

صُدم نيازي من السؤال غير المتوقع، فأجابهُ في سرعة:

- أبدًا.

قال مكاري في خبث :

obeikandl.com

- سأعطيك أيَّ مُقابل تُريده.

قال نيازي في لهجة حملت قوة:

- قُلت لسيادتك أنَّها ليست للبيع أبدًا.

قال مكاري وهو يواصل إصلاحها:

- ما رأيك في ألف جنيه نقدًا؟

في عناد هتف نيازي:

- ولا حتى عشرة آلاف جنيه!

ثم استطرد في لهجة حملت زهوًا واضحًا:

- أنت لا تعرف! إنَّها قيمة بالنسبة لعائلتنا، هي جزء أصيل من تاريخ العائلة، ستبقى أثرًا تتناقله الأجيال جيل بعد جيل، أجيال عائلة (بشندي) على مرّ العصور.

وأطرق مليًا قبل أن يستطرد:

- حياتي كلها تساوي هذه الساعة!

هز الكهل رأسه مُتفهمًا، ولم يلبث عدة دقائق حتى انتهى من إصلاح الساعة، فناولها لنيازي قائلًا:

- ها هي ساعتك عادت لتدق من جديد.

وقام آرمانيوس بتجربتها أمام نيازي، فدقت الساعة بدقات مميزة كانت تختلف كُلّ الاختلاف عن أيَّ دقات مماثلة لأي ساعة حائط أخرى، فلمح نيازي علامات الاعجاب متجلية على ملامح مكاري، فهتف في فخر:

- ألم أقُل لك أنَّها تُحفة فنية؟

obeikandl.com

ناول مكاري الساعة لنيازي والَّذي تناولها في لهفة وحرص وكأنَّهُ يلتقط رضيعًا! ثم نقد مكاري ثمن الإصلاح وقبل أن يهم بمغادرة الدُكَّان قال مكاري في لهجة قوية تشي بعدم اليأس:

- إذا قررت تغيير رأيك فمرحبًا بك في أيّ وقت.

لوح نيازي بيده للكهل وهو خارج الدُكَّان وقال بلهجة ساخرة:

- قُلت لك أنها تساوي حياتي!

قالها وغادر دُكَّان الساعاتي حاملًا تحفته الفنية في حرص واهتمام شديدين.

واستقل نيازي الحافلة المُتجهة للبساتين حيث يقيم هناك، وكان لم يزل يحتضن ساعته كأم تحتضن رضيعها! داخل نفسه كان يهزأ من آرمانيوس، ثم مطَّ شفتيه في استهزاء واضح بالكهل.

وداخل نفسه أخذ يُغمغم:

أيحسب الكهل أنَّ كُلّ شيء في الدُنيا يُشترى بالمال؟

أيحسب الكهل أنَّهُ بسهولة سيُفرط في تحفته الثمينة هكذا بكل بساطة؟

أيحسب الكهل أنَّ لعابه سيسيل فور أن يضع أمامه رزمة مالية مكتنزة من المال؟

مُحال. ستظل ساعة الحائط الفريدة بحوزة آل شندي، ستتوارثها الأجيال المُتعاقبة جيل بعد جيل.

وصلت الحافلة للبساتين أخيرًا بعد رحلة شاقة ومُتعبة نظرًا للتكدس المروري المُعتاد بالقاهرة الصاخبة، كان قد تأخر به الوقت، كان عليه أن يسلك هذا المِدَّق الترابي الذي سيختصر نصف ساعة كاملة للوصول لمنزله، أخذ يسير في

المِدَّق وهو يُطلق من فمه في سعادة بالغة صفيرًا منغومًا للحن أغنية شهيرة، و توقَّف عن الصفير فجأة عندما لمح من بعيد على ضوء عمود إنارة ذو إضاءة ضعيفة رجلين هائلين الحجم، واحدًا منهما يحمل ساطورًا والآخر سيفًا يدفعان شابًا ضئيل الحجم أمامها في غلظة وقسوة.

كان من الواضح أنَّها عملية سرقة بالإكراه أو أيّ شيء من هذا القبيل، تسارعت ضربات قلب نيازي وأصابه الهلع وتوقَّف عقله عن التفكير، كاد أن يدور على عقبيه هربًا ويطلق ساقيه للريح ويعود من حيث أتى لكنَّه خاف أن يلمحه الرجلين فيعدوان كلاهما في أثره ويلحقان به ويقومان بضربه وربما طعنه وتقطيع جسده بالساطور لسرقته، تراجع عن التفكير في أمر الهرب، كانت على يمينه خرابة، دخلها مُسرعًا مفضلًا الاختباء بها حتى مرور اللصين لحالهما ليخرج من جديد بسلام ليعدو نحو بيته في سرعة كالجواد.

استقر في الخرابة وأخذ يُتابع اللصين بعيون امتلأت بالفزع من خلال فتحة صغيرة الحجم في سور مُهدم، زكمت أنفه رائحة القاذورات والأوساخ وكذا البول التي تفوح روائحهم الكريهة من مُحيط الخرابة كلها، لكنه لم يُبدِ أيَّ تأفف ولم يُصب بغثيان، كان فقط يتابع الرجلين وقد ارتفع رجيف قلبه.

وتوقَّف الرجلين – ولسوء حظه – أمامه مباشرة كان يفصل بينه وبينهما ذلك السور المُهدم، وحدث أن قال واحد من الرجلين للفتى الذي كان مُكومًا على الأرض:

- وشيت بنا لقباري إذن يا ابن الزنى!

قال الفتى في رعب:

- أقسم بالله لم أفعل.

قال الرجل الآخر ساخرًا:

- وكيف عرف بأمر كيس "البودرة" الذي اختفى؟

ثم استطرد في ذات السخرية :

- ربما العصفورة هي من أخبرته!

قال الفتى بتلعثم من أثر الرعب الواضح:

- أو ربما سوكة! سوكة ابن كلب ويمكنه أن يفعل ما هو أكثر من ذلك ويشي بكما للمعلم قباري و قاطعه أحدهما في غلظة قائلاً:
- صه يا ابن الحرام! سوكة صديق العمر، سوكة رجل حقيقي ويُقدر الصداقة والأخوة حق تقدير، من المستحيل أن يكون واشيًا حقيرًا مثلك.

ثم أنَّهُ رفع سيفه عاليًا وهتف في قسوة:

- القتل جزاء الخائنين.
- هتف الفتى بضراعة:
- الرحمة! الرحمة يا بدوي، أقسم لك أنني ك..

لم يُكمل الفتى المسكين جملته، إذ هوى بدوي بالسيف على عنق الفتي، فطارت عنقه من شدة الضربة في بشاعة، وتدحرجت على الأرض التُرابية كالكرة الشراب. واندفعت من عنق الجثة دماء غزيرة مثل النافورة.

ومع الرأس التي طارت في الهواء وتدحرجت في مشهد بشع كادت أن تفلت من نيازي صرخة تحمل الرعب كله، لكنَّه وضع يده على فمه كيلا يُفضح من مخبأه،

obeikandl.com

وفي هدوء عجيب مسح بدوي نصل السيف الذي تتساقط منه الدماء في جلبابه البلدي، ثم قال لزميله في برود عجيب:

- هَلُم بنا يا زعتر.

وتنفس نيازي الصُعداء وهو يرى من مخبأه بدوي وزعتر يهمان بالانصراف، فازدَرَد لعابه في صعوبه، وأقسم ألا تطأ قدميه ذلك المدَّق الرهيب مُطلقًا ودقت الساعة مُعلنة تمام الثانية عشرة مساءً.

رباه ..ساعة الحائط اللعينة!

الساعة التُراثية!

الساعة التي أصلح دقاتها هذا اليوم بالذات عند آرمانيوس!

ومع الدقَّات المُدوية هوى قلب نيازي بين قدميه!

وفي حدة وبحركة غريزية التفت الوحشين لمصدر الصوت القادم من الخرابة، ثم أسرعا الخُطى نحوها، وكانت الساعة تواصل دقاتها المُميزة، ودخلا الخرابة يُلقيان ببصرهما في أرجائها كُلها ويرهفان سمعهما نحو مصدر الصوت، أبصرا نيازي مُتكورًا في ركن قذر يرتجف كعصفور مُبلل بالمياه، تبادلا بدوي وزعتر نظرات باردة فيما بينهما، اتَّجها نحوه ثم أمسكاه من تلابيبه وقاما بسحله خارج الخرابة وكان نيازي يهتف في استجداء ورعب:

- لم أرَ أي شئ، أقسم لكما أنني لن أُبلغ عنكما.

obeikandl.com

ولكن زعتر تلك المرَّة هو من قام بالمهمة، إذ هوى بالساطور على عنق نيازي الذي جحظت عينيه في رعب جحوظًا مخيفًا، فطارت رأس نيازي من هول الضربة وأُقتلعت من العنق تمامًا وتدفقت الدماء غزيرة من العنق كنافورة مياه هي الأخرى، ثم تدحرجت رأسه على الأرض الترابية لتستقر –وللمصادفة البحتة– بجوار رأس الفتى المسكين، وباستقرار الرأس بجوار الرأس والجسد بجوار الجسد كانت الساعة التُراثية قد توقَّفت عن الدقات تمامًا، واستقر بها المقام في الخرابة وحدها، وبذلك لن تكون بحوزة آل شندي، ولن تتسلمها الأجيال المُتعاقبة جيل بعد جيل.

openkandl.com